خضاب ورديه

سيد البحراوي

www.alkottob.com

www.alkottob.com

هضاب ووديان

المدن التى تعددت زياراتك لها كثيرة. كنت تذهب دائماً لأداء عمل، لكن وراءه كان يكمن دافعك الخاص. هذه المدينة التى سماها أهلها وطنك الثانى من كثرة زياراتك لها خلت حتى المرة السابقة من هذا الدافع. لم يبح لك أهلها، وخاصة نسائها بسرهم، فاكتفيت فى البداية بأداء العمل، ثم عشقت الشوارع والمبانى، وخاصة فندقك الأثير.

فى المرة السابقة فقط بدأ البوح بصدام عنيف، أعلنت بعده أننى لن أعود أبداً إلى هذه المدينة. وها أنا قد عدت.

جئت فى عمل، لكن دافعى الخاص أصبح واضحاً.

هادية هو الأسم العربى، لكن النطق الأوربى يجعله هاديا، يصلح لأن يكون أسماً أوربياً أيضاً. متوسطة الطول، نحيلة، لون بشرتها أقرب إلى البياض، ملامحها دقيقة تشبه ابنة خال لى، أظن أننى تعلقت بها فى وقت ما. أنف حاد وكذلك الشفتان. عينان سوداوان لكن بريقهما نفاذ تلثغ لثغة واضحة، تبدو خجولة منها فى البداية، لكن حينما يمضى

www.alkottob.com

الوقت تبدو عادية. أبوها مهندس كبيـر فـى الإدارة، تبـدو دلوعة.. لكنها فى العمل نار لا تهدأ.

جئت هذه المرة من أجلها. وكأن مشاركتها فى إجلائك عن فندقك الأثير فى المرة السابقة، كانت تهدف إلى إحلالها محله. لكنك لم تدر ذلك إلا الأن، وأنت فى الفنـدق الآخـر الذى أجلتك إليه منذ المرة السابقة، بانوراميك.

هذه المرة أيضاً أنزلونى فيه، لكنى لم أرفضه مثل المرة السابقة. عرفت مقدماً، منذ وصولى أننى أنزلت فيه. وحـين وصلته بعد مناقشة منهكة، كنت فى حـال لا تسـمح بـأى اعتراض على أى شئ.

فى الصباح تمت المصالحة الفعلية مع الفندق. جاء ذلك بمحض المصادفة حين احتجت إلى دورة مياة، فوجدتها فـى الحانة، واكتشفت فيها حانة أجمل من حانة سيرتا. مقاعـدها مريحة وكذلك موائدها، ثم أنها تطل على الشارع وعلى غابة مرتفعة مليئة بالأشجار والنباتات المتنوعة.

تجلس إلى مائدة منخفضة وكـذلك الكرسـى بجـوار الزجاج المطل على الشارع. تراقب البشر، تحاول أن تفهـم

www.alkottob.com

ما يعيشون من حركات أيديهم وسيقانهم وطريقة مشيتهم ومن أنماط ملابسهم.

بالأمس جاءك هاجس أن الانطباع الأول عن الشخص، وخاصة النساء يأتى من مشاهدة الوجه، ولكن وأنا جالس الآن فى الحانة. مرت أمرأة يبرز ثدياها إلى الأمام متجاوزًا حدود بقية جسمها بنحو ربع متر. انتبهت إلى أننى ورغم احتياجى لأمرأة ، لا أستطيع بأى حال من الأحوال التعامل مع أمرأة كهذه، مهما كان وجهها جميلاً.

لم تكن فى حالة تسمح بالتطلع إلى وجهى الفتاتين اللتين جاءتا لإجلائك برقة وصلت – مع رفضك الملح- إلى حد التوسل. كنت فى حالة غضب بالغ لأنهم أهدروا حلمك. فيما بعد اعتذرت لهما، وحاولت التقرب منهما، وخاصة من هاديا التى أبدت ودا زائداً، عرضت المساعدة فى أى شئ، وحين طلبت منها أن تدعوك على فنجان قهوة رحبت وألقت بعض كلمات الغزل كما لو كانت قد جاءت عرضاً. وحين دعوتها إلى غرفتك بدت راغبة، ولكنها- فى النهاية- رفضت. فيما بعد عبرت عن توترها الشديد نتيجة لاهتمامك بأخريات.

ربما لم تكن تقصد إغاظتها، لأنك – فعلاً- كنت مهتمًا بها

www.alkottob.com

هى بالذات. لكن هذا ما فهمته، وهو ما أدى إلى ما لم تعرف عقباه بعد.

ليس الأمر مجرد شهوة. لها سحرها الخاص، لا تدرى أين يكمن بالضبط.. ثمة أسطورة خبيئة تريد أن تتعرف عليها. جئت لكى تعرفها، ولست تدرى إلام ستصل.

حين استفقت من تعب العمل، اتصلت بها. أجاب صوت بأن الرقم خطأ، فأخذت تسأل كل من يستطيع المساعدة عما إذا كان قد حدث تغيير فى أرقام التليفونات. قالوا نعم، ولكنهم لم يعرفوا الرقم البديل. لم أيأس، فسألت عامل التليفون فى الفندق، كيف أطلب رقماً فى المدينة فأخبرنى، وهذا ما لم أكن أتوقعه أبداً، أنه لابد من طلب كود المدينة أولاً. جربت هذه الطريقة، فرد على أبوها. لم تكن فى المنزل. فتركت لها رسالة أن تتصل بى فى الفندق. ثم أخذت أفكر فيما يمكن عمله فى انتظار اتصالها. فقررت الخروج.

فى وسط المدينة ساحة الشهداء، الرابعة والنصف الشوارع شديدة الزحام، يبدو موعد الخروج من العمل/ ومع ذلك تجد المتسكعين والمتسكعات، وجوه الفتيات رائعة

www.alkottob.com

وشهية، والرجال ممصوصون متعبون، تلحظ ذلك فى نظرات العيون وفى درجة التأنق- والعكس- عدم العناية.

سور يحيط بمنطقة خضراء كنت قد لاحظتها قبل ذلك دون أن تعرف ماهيتها. الآن هى حديقة عامة محيطة بمبنى جمعية مالك حداد الثقافية، دخلت وجلست، جميع الوجوه لرجال وشباب متعبون، ظننت أن النساء لا يدخلنها لكنك فجأة وجدت اثنين متأبطين، كما هو المعتاد هنا، تدخلان، ثم تخرجان من الباب الآخر.

خرجت فى عكس الاتجاه، إلى ساحة أول نوفمبر، حيث مبنى البريد المركزى والمقاهى العديدة. مقهى النجوم، يطل على الوادى العميق الذى يحيط بها، قادنى التأمل فى حركة الناس إلى السبب الذى يجعلنى أحب المدن الصغيرة (قسطنطينة) وأكره المدن الكبيرة. ربما الهدوء النسبى، والقرابة إلى القرية. وربما أيضاً محدودية قدرتك على المواجهة، أو محدودية الطموح! وجدت أن هذا التفسير متعجل فصرفت النظر عنه إلى رأى فما سبق أن قالته إحداهن، لست قناصاً. وقد صدقت والدليل فشلك الدائم فى اقتناص أى امرأة من الطريق، رغم سعيك الدءوب لذلك.

www.alkottob.com

كنت أثناء سيرك تبحث عن وجه امرأة تصلح لمرافقتك، وتبدى استعداد دائم، فعلت ذلك فى كل المدن التى زرتها، وفشلت فيها جميعًا.

اليوم صادقتك واحدة مقبولة التفتت إليك لفته ذات مغزى، وبعد أن تجاوزتك توقفت عند فاترينة أحد المحلات. نظرت إليها من مكانى ولم أتحرك، حتى واصلت سيرها فى عكس الاتجاه.

انتهيت من احتساء قهوتى الثانية ومن تدوين بعض هذه الأفكار على وجوه رواد المقهى تتطلع إلىّ. أغلقت كراستى الصغيرة، وضعتها فى جيبى، وخرجت فى طريقى إلى الفندق، فربما كانت قد اتصلت.

لم تكن قد اتصلت. قال أبوها أنها ستعود بعد ساعة. ربما لم تعد. وربما لم يخبرها، فأنا لا أعرفه ولا أعرف طبيعة العلاقة بينهما. الأهم أنها ربما لم تتذكرنى، أو ربما لا تعرف رقم الفندق، فقد نسيت أن اعطيه لإياه، والأدق أن منطق المكالمة لم يشجعنى على ذلك، فهو لم يطلب الرقم، وبدا غير مهتم بالأمر كلية. احتمال أخير أن استقبال الفندق

www.alkottob.com

غير دقيق فى عمله. فقد سبق لهم أن أهملوا رسائل جاءتنى ولم يخبرونى بها.

سوف انتظر إذن وأرى.

صعدت إلى غرفتى، كنت منهكاً، فلم تكن قيلولتى هادئة. صوت العاملة -فى أغلب الظن- المرتفع تتحدث فى تليفون الغرفة المجاورة منعنى من النوم فى البداية، فكرت فى عمل شئ لكنها توقفت فنمت قليلاً، بعد وقت قصير أيقظنى صوتها مرة أخرى من الغفوة، فقمت ودققت على الجدار ثلاث دقات. هدأ صوتها، ثم عاد إلى العلو، فعدت ودققت مرة أخرى، فهدأ الصوت، لكن النوم كان قد ضاع. فكرت فى إمكانية مغازلتها. ففتحت الباب علّى أجد بابها مفتوحاً لكنه كان مغلقا، فعدت أحاول النوم دون جدوى.

خرجت إلى شرفة الغرفة. وجدت المدينة أمامى كما عهدتها، لكن أضواء الليل كانت قد أبانت ما لم أكن تأملته جيداً، وإن رأيته من قبل. تدجات الارتفاع فى الوادى العميق إلى الهضاب العليا المنفصلة التى تصل بينها الجسور، جسور الطاهر وطار السبعة التى ضاع فيها بولارواح، وضاعت فيها بطلة أحلام مستغمانى. مدينة الثورة واليهود

www.alkottob.com

وبن باديس ومالك حداد. مدينة التناقضات التاريخية منذ كانت سرتا....

عدت إلى المكتب الذى لم أكن قد جلست عليه حتى الآن. مكتب من الخشب مطعم سطحه بقطعتين من الرخام الصناعى، الصقتا بالخشب على الجوانب الأربعة بحيث بدا الخشب قرصاً مستطيلاً، فى وسط الرخام. لكن قطعة الرخام التى أكتب عليها كانت مكسورة بحيث تمثل خرقاً مزعجاً يؤدى إلى ظلام حالك. لم يكن فى الحقيقة إلا المكان الذى أضع ليه قدمىّ ولا يصله ضوء الغرفة.

فى الصباح، حاولت- دون حماس كبير- تقديم موعد السفر، ولكن ذلك لم يكن ممكنًا. وفى إدارة الجامعة حاول صديقى -ولم أشاركه- تحويل الإقامة إلى فندق سيرتا. ولم ينجح. ورغم مصالحتى مع بانوراميك، فأظن أنها مصالحة من أجل هاديا أساسًا. فهو فندق ردئ- فيما عدا الحانة والمطعم. مزيج من أنماط متعددة من الأبنية، لم أستسغها. يحاول أن يكون حديثًا ولم ينجح- إدارته روتينية- أفضل الفنادق العتيقة كلما أمكن.

www.alkottob.com

يراودنى هاجس- وأنا أنتظر- أن هذه ستكون آخر زياراتى لقسنطينة فها هى المرة السابقة وأنا أحاول التملك من أسطورتها. أملك بعض المفاتيح من المشاهدة والاستمتاع والقراءة.. لكنى لم استطع بعد. هاديا هى المفتاح الأهم. وإذا لم تتصل.. فلن آتى بعد ذلك. كما هددتها من قبل؟

سالت صديقى لماذا لا يهتم الناس هنا بما يحدث فى

فلسطين؟ فقال: الناس مشغولة بهمومها الاقتصادية، وحياتها الصعبة. والحكومة تمنع المظاهرات. والقيادات السياسيةدجنت. وبالأمس، لم يتورع زميلى فى العمل عن مهاجمة

المشارقة- فى مواجهتى- متهمًا أياهم بأنهم لا يتابعون ما يحدث فى المغرب، لا الآن ولا من قبل.. والغريب أنه ربط المغرب بالأندلس! ورغم اتفاقى مع صديقى، واختلافى مع زميلى، يبدو أنه لابد من الاعتراف بأن هناك مشكلة بين المشرق والمغرب.. غياب هاديا حتى الآن دليل واضح عليها. هذا إذا استقر الأمر على أنها قررت عدم الاتصال.

نزلت لتناول العشاء، رغم فقدانى الشهية، قلت نوع من التغيير، رؤية وجوه ومسالك.

www.alkottob.com

فى هذا المطعم بالذات، كانت هاديا هنا فى العام الماضى. استقرت مع زميلات وزملاء فى الطاولة الأولى، على مسافة بعيدة من الطاولة التى جلسنا إليها مع الزملاء الأكبر سناً (ومقاماً). ظلت تلهو وتضحك مع مجموعتها، وكنت مغتاظاً من مجموعتى التى ظلت تتحدث الفرنسية فى شئون لم تكن تعنينى.

فى محاولة للتقرب، ذهبت إلى طاولة هاديا، محيياً أياهم لكن بجفاف. كانت هاديا قد خلفت موعدها معى فى ظهيرة ذلك اليوم، فى نهاية العشاء حاولت هاديا حين تـوديعى أن تبثنى رسائل خاصة، لكنى كنت غاضباً، ولم أرد عليها الرد الحسن.

اليوم أجلس على مائدة قريبة من مادة صغيرة تليق بشخص وحيد.

جميع الزبائن من الذكور، وهذه تبدو خاصية لهذا الفندق، إمرأة وحيدة دخلت مع رجلين، لكنها حين رأتنى وحيداً نظرت إلى بقوة وعبرت.

بالأمس أكلت كسكساً، وظهيرة اليوم أكلت شمنا، ولم أكن أدرى ماذا أكل هذا المساء بهذه الشهية المعدومة، سألت

www.alkottob.com

النادل بالفرنسية على الأطباق الخاصة بقسنطينية فأقترح على أن أعود إلى الكوسكسى. وافقت، متذكراً ما حكاه زميلى فى العشاء ليلة أمس عن محمود درويش، حينما زار الجزائر وأقترح عليه أن يتناول نفس الوجبة، فقال أفضل نصفها.

الآن أجلس منتظراً الوجبة كلها، وليس النصف. رغم أننى بالأمس لم استطع الاتيان على ثلثها. وأظن أننى لن أستطيع اليوم الآتيان على ربعها، وخاصة أنهم يأتون بكميات كبيرة من الأطباق، الكسكسى وأنواع الخضار، ثم اللحمة أو الدجاج.

(فى زمن مضى، حينما كنت أمر بمواقف مثل هذه، كنت أعيش حالة من التعاسة لا توصف. الآن لأنى أستطيع الكتابة، أشعر بنوع من السعادة الرضى عن نفسى، لأنى قادر على المصارحة وعلى أن أعرف نفسى أفضل مما كنت قبل ذلك. هذه هى تجارب فى الحياة، جميل أن نعيشها وأن نستوعبها، وألا ندعها تفسد علينا الحياة، بل نغلبها إذا أمكن.

بعد العشاء اتصلت بها، كانت موجودة. قالت أنها حاولت الاتصال ولم تنجح، كان صوتها فرحاً. لم أستطع تبين صوتها جيداً، هل هى هاديا فعلاً لأم زميلتها سلمى.

www.alkottob.com

التبس على الأمر. فهل هذه هى الأسطورة بعينها، أتخيل أننى أريد أمرأة، فإذا بى -دون وعى- أصل إلى أمرأة

أخرى. لا أذكر أننى كنت أرفضها، بل ربما حاولت الاقتراب
منها... لكنها لم تكن هى منيتى... لا أتذكر ملامح وجهها... لا أذكر عما دار من حديث بيننا. أذكر أنه كان عميقاً... ربما أكثر من الحديث مع هاديا... ولكنى لا أذكر تفاصيله. قالت أنها ستمر على فى الصباح، وبدت كما لو كانت راغبة فى إطالة الحديث، وأنها فوجئت بتوقفى الذى فسرته بمشكلة التواصل اللغوى. كان فى الحقيقة اضطراباً بسبب اللبس. قالت أنها تفهمنى.

على منذ الآن وحتى الموعد فى الصباح أن أتذكر وجه سلمى وبعض تفاصيل الحديث الذى دار بيننا. فربما كانت هى منيتى وليست هاديا.

فى الصباح لم أكن قد توصلت إلى نتائج واضحة، لا أذكر إن كانت محجبة أم لا. لكن هذا لا يهم. لا فارق فى كثير من الحالات، وخاصة هنا. أذكر أنها كانت قصيرة نسبياً قمحية البشرة. ذات عينين ذكيتين، وإن كان بها حياء

www.alkottob.com

ما. تذكرت أننى مفجأ بما حدث. فإسما الاثنين كانا متجاورين فى الأجندة ولم أستطع أن أميز منهما اسم تلك التى شغفتنى وجئت أبحث عنها. على كل حال ما زال احتمالها قائما.

نزلت من الغرفة بعد أن انهيت طقوس الصباح. ارتديت أفضل ما لديك، مع الحرص على أن تبدو شاباً غير متحذلق، فكرت أن تذهب لمشاهدة سوق الأشياء القديمة التى تطل عليها من شرفتك فى الوادى الذى يطل عليه الفندق. سرت باتجاهه لكنك اكتشفت أن الطريق إليه طويل وأنت فى الأعلى وهو فى الأسفل. سيكون الصعود – بعد الهبوط- صعبا، وهو يحتاج إلى وقت للمشاهدة. ولم يعد لديك منه الكثير حتى الموعد، جلست على أقرب مقهى تنتظر وتفكر أن هذه اللحظة القادمة لا شك لحظة مهمة.. لست النتائج هى المهمة، بل أن تعرف إلى أى مدى أصبحت ذاكرتك قادرة على خيانتك. وأن تتعرف على حلمك الذى جئت من أجله.

فى الفندق جلست فى الحانة، بجوار الزجاج، على أقرب كرسى من الباب. ترقب الشارع أو تترقب الوجه.. تتابع السيارات والمشاة فلست تدرى هل لديها سيارة أم هى

www.alkottob.com

راجلة، وأمامك على المائدة، كان الكتابان اللذان رأيت أنهما أنسب ما يمكن إهداؤه إليها، بعد أن انتبهت أنك لـم تحمـل معك- هذه المرة- أية هدايا سوى بعض الكتب.

مضت دقيقتان بعد الموعد ولم تأت بعد.. هـل تتـأخر مثلهن؟.

اعتدت على أن الجميع هنا لا يلتزم بالمواعيد، وخاصة هاديا.. فسوف تتأخر بكل تأكيد. أمـا لـو كانـت سـلمى، فتصورى أنها أكثر جدية والتزامًا. الآن صرت أتمنـى لـو كانت القادمة سلمى، الأخرى لعوب، وأنت لم تعد فى سـن يسمح لك بتحمل المغامرات الصعبة، لم تتأخر كثيراً، خمس دقائق فقط ولكن المفاجأة وقعت. لم تكن هذه ولا تلك. ثالثة، كانت معهما ولكنك لم تتذكرها على الإطلاق، لم تكـن قـد جذبتك، كانت عصبية وجافة، لكنها اليـوم مختلفـة. هادئـة نضرة حنون.

استوعبت المفجأة بسرعة.. فى البداية وقفت الكلمات فى الحلق لكنك أنقذت الموقف باقتراح الخروج للتجـوال.. فـى المدينة القديمة.

أثناء السير سألت:

www.alkottob.com

هل زرت متحف سرتا؟

فوجئت بالسؤال لأنى لم أكن أعرف أن بالمدينة متحفاً.. وكان هذا هو لب ما أريد أن لأعرف، تاريخ المدينة، فربما استطعت الإمساك بأسطورتها. هل حدست هاديا بذلك أم أن هذا هو السؤال الطبيعى لأى زائر.

سرنا إلى المتحف لم يكن بعيداً، لا شك أننى مررت به أو قريباً منه، دون أن انتبه، ربما ذكره لى أحدهم من قبل؟ دون أن أعيره انتباهاً. لم يكن قد بقى كثير من الوقت على منتصف النهار حيث يغلق المتحف أبوابه للغذاء ككل الإدارات، تجولنا فى قاعاته بسرعة، لكننا لم نجد كتباً أو بطاقات مصورة، فاقترحت أن نذهب إلى المركز الثقافى العربى (عبد الحميد بن باديس) فربما وجدنا بغيتنا هناك.

لم تكن عربيتها سلسة فتحدثنا تلقائياً بالفرنسية، رغم أن فرنسيتهم لا أفهمها جيداً. حكت عن أبيها وأخواتها السبعة، وعن صديقها. سألت إن كانت تعشقه، فقالت ليس لهذه الدرجة.

- هل يوافق أبوك على ذلك؟

- لا . تقليدياً لا. لكن الأم تحمينى.

www.alkottob.com

- ماذا يعمل؟

- طبيب بيطرى.

- وهل تنويان الزواج؟

- ليس الآن.

كانت الإجابات مريحة بالنسبة لى، مما شجعنى على وضع يدى على كتفها أثناء تجولنا فى دهاليز المركز الثقافى لم تعترض، وربما حرصت على الإقتراب منك أثناء السير لتحتك ذراعك بذراعها العارية، ولاحظت أنها أخذت تبتلع ريقها بصعوبة..

من المركز الثقافى حصلت على هدية كتيب صدر عام ٩٩٩١ بمناسبة الاحتفال بألفين وخمسمائة سنة على نشأة مدينة سيرتا. فى المقدمة يقول مدير الثقافة أدريس بوذيبة:

مدينة محصنة كعش النسر ومتدلية كعنقود عنب مطل على نهر الرمال.

وجهها تفاحة من قرميد.. ويداها ربوتان من الحجر الصوان.. إن مدينتنا قريبة من السماء، والسماء لا تكون زرقاء إلا فى قسنطينة كما قال أديبها مالك حداد.

عرفت أيضاً أن كاتب ياسين قد ولد فى المدينة.

www.alkottob.com

حين خرجنا من المركز كان الجو قد تغير وبدأت أمطار خفيفة مع ضباب لكن ظلت درجة الحرارة كما هى. بالأمس كان حاراً وأول أمس، حين وصلت كان ممطراً وبارداً.

- هل هذا طبيعى؟

- نعم.

عدنا من طريق آخر، توقفنا عند بعض المحلات، اكتشفت معها منحنيات ومنازل ومصاعد غير ما عرفته. كانت تبدو سعيدة بالفعل، وأنا كنت كذلك، رغم المفاجأة. قالت أنها تستطيع تدبير سيارة غداً لتدور بها فى المدينة، سعدت بالاقتراح ووعوده...

أوصلتنى إلى الفندق ثم رحلت على أمل اللقاء.

خلوت إلى نفسى أتأمل ما حدث، لم أدر هل أقترب من فك السحر أم أبتعد. لا تبدو هاديا حاملة لأية أساطير. تبدو بسيطة، دون أغوار. هل أعود لأبحث عن الأخرى: اللغز. حينما سألتها عن زميلاتها، لم أستطع أن أفهم من كلامها من هى سلمى. ليست البيضاء اللثغاء. بل القصيرة التى كنت أتمنى لو أنها أتت اليوم.

ماذا لو تلفنت؟ من ستخرج لى.

www.alkottob.com

هل ثمة مبرر لذلك. أم أكتفى بهاديا هذه المرة.. ليس هنالك أمرأة دون أسطورة، وأنت الذى لم تكتشفها بعد.

نعم، لكن أسطورة المرأة القسنطينية لا ينبغى أن تكون أسطورة عادية ككل النساء، لأن قسنطينية التى عشقتها ليست ككل المدن.

مدينة "عش النسر" يمكن تحديد فترة نشأتها كمدينة ما بين القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. وهناك من يرى أنها كانت موجودة منذ القرن العاشر قبل الميلاد.

فى ذلك العهد كانت عاصمة لملوك قبائل نوميدية تسمى السيليين الذين اسموها "قرطة" أو "كرثن" أى القلعة أو المدينة، وهو الأسم الذى حرفه اللاتينيون فيما بعد إلى

"سرتا". فى عصر الاحتلال الرومانى أدت الحرب الأهلية إلى تدمير المدينة كلياً سنة ١١٣ م. وظلت خراباً إلى أن أمر
الملك الرومانى قسطنطين (٨٨٢-٧٣٣ م) بإعادة بنائها سنة ٣١٣ م فحملت اسمه حتى دخول العرب فسموها " قسنطينية".

www.alkottob.com

بعد القيلولة حاولت الاتصال بسلمى كان الرقم الذى لدى قد تغير، وكنت قد سألت عن احتمالات الرقم الجديد، فقيل لى أن ٩ قد أصبحت ٣.

اتصلت بالرقم الجديد فردت على أمرأة قالت: غلطت يا خويا.

وصلتنى الرسالة فكففت عن المحاولة. تكفى أمرأة واحدة خاصة وأن موعد رحيلك قد اقترب.

وبدا أن حلمك لن يتحقق هذه المرة، وأنك ربما تحتاج إلى العودة مرة أخرى. فذهبت لتناول العشاء.

لاحظت أن الفندق، وكذلك الأبنية المحيطة بالوادى، منحوته- تقريبًا- فى حضن الجبل، بحيث أن عدة أدوار منها فى مستوى أدنى من مستوى الشارع ولا تطل إلا على

الوادى. فى هذه الأدوار كان المطعم، فى الدور تحت الأرضى يطل على الوادى والمبانى المحيطة به، منظر جميل ملئبالخضرة، بجانب المبانى القصيرة، فيما عدا بعض العمارات الحديثة المرتفعة التى تخل بالتناغم المعمارى.. ومع ذلك لامقارنة مع المدن الكبيرة ومنها مدينتى التى لم أعد أستطيع

www.alkottob.com

التواءم مع فجاجتها وتشوهها المعمارى. فحتى هذه العمارات الحديثة تقوم على نمط موحد وتأخذ ذات اللون: الأبيض الذى لا يتنافر بحدة مع القرميدى البنى والأشجار الخضراء.

على كل حال لا تستطيع رؤية المنظر إلا من وراء ستائر رقيقة يحرصون دائماً على أن تبقى مسدلة، لا تدرى لماذا. وبدلاً من ذلك لابد أن تتجول عيناك عبر حائطين عريضين على أحدهما لوحة زيتية لمنظر طبيعى نهر وأشجار على شاطئية وصخور اقتربت منها لتعرف لمن هى فوجدتها نسخة مصورة ومقابلها مرآة تعكس اللوحة ووجوه الجالسين قبالتها، أو ظهورهم إن كانوا بالعكس.

على يمين الوادى، وعلى اليسار مقاطع من جدار تتخللها مساحات فراغ، على كل مقطع لوحة صغيرة، لطيفة لكنها بسيطة موتيفات لزهور ومناظر طبيعية فحسب.

على المائدة المجاورة كان جزائريان يتناقشان حول أحداث العنف المستمرة فى "بجاية" منذ عدة أيام. قبائل البربر يتظاهرون مطابين بحياة أفضل. ورغم أن المتحدثين كانا متفقين بشأن عدالة مطالبهم فى العمل وغيره، إلا أنهما كانا

www.alkottob.com

يشككان فى النوايا التى تكمن وراء ذلك وفى المصالح التى تحركهم، وخاصة فى فرنسا.

كنت أعرف أن المشكلة قديمة وأنها تثور وتهدأ بحلول مؤقته.

البربر يطالبون باحترام هويتهم، والحل هو الديمقراطية،

وحكامنا لا يريدون تحقيق الديمقراطية، مأساتنا جميعًا.

بعد قليل قطعوا بث الموسيقى الهادئة، ونقلوا عن الإذاعة خطاب الرئيس عن الموضوع. لم يقل شيئًا. قال أنه يتفهم مشكلات شباب القبائل، ثم استشهد بآيات قرآنية مفادها أنه ليس إلا االله الذى يستطيع تأليف القلوب، وختم خطابه القصير بالدعوة: "رب اجعل هذا البلد آمنا" ثم عادوا إلى الموسيقى الهادئة.

كان الجميع صامتين تقريباص، فيما عدا الأجانب الذين كانوا يتحدثون فى خفوت.

تذكرت -على الفور- ما كنت قد قرأته هذا الصباح فى الكتاب المذكور من التباهى بتعدد ثقافات قسنطنية ومدى الثراء الذى يحققه هذا التعدد.

www.alkottob.com

فى انتظار ما طلبت، وكان هذه المرة أرانب، أخذت أحدق فى الفراغ، أو على الأدق بداخلى، ولم انتبه إلى حديث المرأتين اللتين تجلسان على يمينى، كانتا فى منتصف العمر، لم تكن أى منهما جميلة...ربما لذلك انصرفت عنهما.. وربما لأنى لم أكن أحتاج إلى ذلك.

كان داخلى صامتاً، ليس هادئاً، ربما كان ينتظر شيئاً ما.

ذهبت للتبول، وجدت الحمام مليئًا بقطع صلبة من البراز، استعصت على السيفون. كنت قد شاهدت نفس الشئ فى الحمام الآخر، الذى دخلته قبل أن آتى إلى المطعم.

جاء الطبق، كانت به قطعتان كبيرتان من الأرانب مغطاة بحساء من الطماطم مع قطع من البطاطس والشامبنيون. حين بدأت التعامل معه فوجئت بصلابته وتأبيه على السكين بحيث تناثرت بقع الحساء على المائدة ووصلت إلى ملابسى، أدركت أنها ليست الأرانب التى أعرفها، بل أرانب برية، ومع ذلك لم يكن طعمها رديئًا. أكلت منها ما استطعت تقطيعه، ثم صعدت إلى غرفتى، وأخذت أشاهد التلفزيون.

www.alkottob.com

فى الصباح وأنا أطلب الإفطار فى الغرفة جائنى صوت أمرأة. خمنت أنها نفسها التى ردت على بالأمس. قالت:

- أى غرفة؟

- ٥٠٣.

- نفس غرفة الأمس. سكر زيادة.

- قلت نعم ثم تشجعت وسالت:

- أليس هناك شئ غير المربى!

- لا. لا شئ.

- ما فيش جبنة مثلاً.

- فيه جبنة.

- عاوز جبنة بدل المربى.

أقفلت الخط وأتممت طقوسى وانتظرت، بعد وقت جاء رجل بالصينية.

وجدت قطعة جبن شيدر مع العصير والكرواسون وقطعة خبز والقهوة.

تذوقت العصير فكان مذاقه تقريبًا لا يبدو منتميًا إلى أى فاكهة أعرفها، ربما كان حامضاً. تركته. وتناولت قطعة خبز وضعت عليها قطعة من الزبدة وقطعة من قطع الزبد وأخذت

www.alkottob.com

أمضغ دون رغبة. وحين انتهيت بدأت فى إعداد القهوة، لم أجد السكر زيادة. قطعتان فقط وضعت واحدة فى الفنجان الأول، فكان طعمه مراً. ومع الفنجان الثانى قررت تقليل كمية القهوة لتتناسب مع كمية السكر ليكون المذاق مقبولاً.

أحاول أن أفعل شيئاً جميلاً.

أنهيت القهوة وارتديت ملابس ثقيلة لأن الجو كان بارداً، ولكنها أيضاً أنيقة ونزلت، انتظر هاديا.

كان ذهنك ما زال يبحث عن ملامح القمحية.. ربما كانت خمرية اللون.

انتبهت إلى أن الملامح التى رسمتها بالأمس كانت ملامح اللبنانية التى تجولت معك بجوار الحدود عند معبر فاطمة فى العام الماضى.. واضح أنها قد تركت فيك تأثيراً قوياً، ليس فقط بملامح وجهها، وإنما أيضاً بوعيها وشخصيتها القوية.. ومع ذلك لا تذكر اسمها أيضاً.

كان الموعد بين التاسعة والنصف والعاشرة. صارت العاشرة والنصف ولم تأت. لم تكن قلقاً ولا حزيناً، بل ربما كنت مستريحاً، ومع ذلك قررت أن تنتظر حتى الحادية عشرة، لأنها قالت بالأمس أنها لا تستيقظ مبكراً، كما أن

www.alkottob.com

البحث عن مكان لصف السيارة معضلة حقيقية فى وسط المدينة.

إذا لم تأت فسوف تنفذ الشروع الذى أجلته بالأمس.

سوق الأشياء القديمة.

أمامى كان التلفزيون يبث برنامجًا للأطفال، لكنهم بدءاً من الحادية عشرة إلا ربع بدأوا يكتبون أسفله تنويهًا أنهم سوف يعيدون بث خطاب الرئيس إلى الأمة.

فى المائدة المجاورة كان ثمة مجموعة من الأشخاص، يبدو أنهم أعضاء فى مؤتمر طبى. لاحظت أنه يأتى بكل بحث على حدة، كانوا حوالى ثمانية، ويوزع عليهم واحداً واحداً.

انتبهت أنه لم يفعل كما فى مؤتمراتنا.

يضعون كل الأبحاث مسبقاً فى حقيبة ويوزعونها مرة واحدة. لاحظت على الوجوه ابتسامة كلما أعطاهم بحثاً. وهكذا تكررت لحظات السعادة عدة مرات، بدلاً من مرتنا الوحيدة. عجيب أمر البشر يسعون دائماً إلى الاستحواذ، ولا يرفضون أى عطية مهما كانت.

www.alkottob.com

فى الحادية عشرة خرجت، فإذا بها تخرج من التاكسى. جاءت لتعتذر لأن خالها نقل إلى المستشفى. قالت حاولت الاتصال دون جدوى. واسيتها واتفقنا على تليفون فى المساء، وربما لقاء غدا، واتجهت إلى السوق.

لم تكن لدى رغبة فى الشراء، كنت فقط أرغب فى التعرف على الظاهرة. كان سوقاً صغيراً فى شارع قصير، لكنه مكتظ بالأشياء المألوفة فى مثل هذه الأسواق. من المسامير وقطع البلاستيك المكسورة إلى أجهزة الكمبيوتر والثلاجات... بالإضافة إلى بعض الأشياء التقليدية.

أعجبتنى كمنجة صغيرة فى حجم الكف أردت مشاهدتها لكن البائع لم يكن موجوداً فأكملت المشاهدة، أردت أن أشترى متراً لكن البائع أصر على سعره فتركته.. عدة مرة أخرى إلى الكمنجة،وجدت البائع أخبرنى بسعره كان مرتفعاً، ومع ذلك أردت أن أراه عن قرب، أخرجه لى، كان لطيفاً لكن كل قيمته فى صغره، قلت ربما كان رمزاً لرغبتى الدفينة فى الموسيقى، حاولت التقليل من المبلغ فرفض البائع فتركته ومضيت.

www.alkottob.com

فضلت ألا أعود من نفس الطريق، فسرت فى اتجاه وسط المدينة من أسفل، مررت بأسفل الفندق وأكملت، منطقة باردو مليئة بالحرف ثم سوق الخضار والفاكهة. عبرت حتى فندق مدسيرتا، ثم إلى الساحات الرئيسية، كانت المقاهى مغلقة، قلت ربما بسبب إجازة أول مايو، درت من الناحية على الوادى الآخر وجدت نفسى فى سوق طعام آخر، ولأول مرة فى حياتى أجد أنفى لا تستطيع تحمل الروائح المختلطة، خرجت فوجدت أمامى مجموعة مقاه فى ساحة مفتوحة، هى ساحة أحمدباى. أخذت قهوة وجلست أحتسيها على مهل. فوجئت بأمرأة لأول مرة فى مقهى. انتهيت من القهوة وعدت أدراجى إلى الفندق، ولكن من أعلى. فى الطريق اشتريت سائلاً لتلميع الحذاء. هذا بالتأكيد، هو الشئ الوحيد الذى احتاجه الآن. بعد أن دفعت الثمن أدركت أننى دفعت ثمناً أعلى مما يستحق.

لست-بطبعى- استهلاكياً، لكنى ألاحظ أن رغبتى المحدودة -فى الشراء لنفسى أو للآخرين تقل بوضوح: هل هو زهداً أم بخل، لا أدرى. لدى من المال ما يؤمن حياتى، وليس لدى من يرثنى، لماذا لا أنفق؟.

www.alkottob.com

ليس هناك ما يستحق. وهذه المرة ليست لدى رغبة فى شراء هدايا. فهذه رحلة عمل غير مدفوعة. هل هى أيضاً رحلة بحث غير ذى جدوى؟

كان المطعم ساعة -غذاء- هادئاً، كانت مائدتان فقط مشغولتان ولذلك كنت حراً فى اختيار المكان الذى أجلس فيه، اخترت الركن الآخر، فى مواجهة المرآة، كان رأسى ووجهى يطلان منها، لكنى كنت بعيداً بحيث لم أستطع رؤية ملامحى بوضوح.

فى طريقى إلى الفندق خطر فى بالى السمك، فهو أفضل وجبة تناولتها هنا الآن. حينما دخلت المطعم نظرت فى الفاترينة وتأكدت أن السمك موجود. طلبت من الشيف اثنين، لكنه اختار لى ثلاثة منهما اثنين صغيرتان وأرانى إياهم فسألته: أليس الكبير أفضل، قال نعم، لكن لا يوجد.

سعدت لأن تذوقى للطعم فى المرة السابقة كان صائباً.

جلست انتظر، مستمتعاً بموسيقى المالوف الشجية، لكنها توقفت، فرحت أراقب الآكلين. لم تكن الوجوه مألوفة، سوى وجه اليابانى (أو ربما كورى..) الموجود فى الفندق منذ جئت. صامت هو أيضاً، إلا إذا كان معه مرافقه الذى يحمل

www.alkottob.com

وجهاً مصرياً، يتحدث الانجليزية بصعوبة، لكن من الواضح أنها تكفى.. لست أدرى ماذا يفعل هذا اليابانى هنا؟ وإن كنت قد لاحظت وجود وفد يابانى، سائحون غالباً، قد أتو على نفس طائرتى من القاهرة.

المائدة الأخرى، يجلس عليها ثلاثة يتحدثون لغة لا أعرفها. فى الغالب سلافية. وجوههم أيضاً تقول ذلك.

عادت الموسيقى فسعدت، وصببت بقية البيرة فى الكأس، فظهرت طبقة من الرغاوى، فزادت سعادتى، نبه الشيف مساعده أنه لم يأت لى بعد، بالخبز فجاء به، ثم جاء بالسمك ومعه بطاطس وقطع من الليمون ومنن الطماطم والخس.، كانت رائحته شهية، فأنهيت سيجارتى وأخذت فى تناوله بتؤدة.

ترددت بأى السمكات أبدأ، وكانت الكبيرة أقرب إلى فأكلتها، وكان طعمها لذيذاً بالفعل، وخاصة حينما اصطدمت بطعم الثانية الذى بدا لى كأن عطناً قد أصابها، فتركتها وانتقلت إلى الثالثة، فكانت وسطاً. انتهيت منها بمساعدة البطاطس والطماطم، وحبات صغيرة، تعرفت عليها فيما بعد: رتبوتات صغيرة مطبوخة. عدت بعد ذلك إلى الثانية.

www.alkottob.com

وعصرت عليها ليموناً وحاولت استكمالها فلم أنجح، فتركتها

وخرجت. فى المساء اتصل بى مسئول فى التلفزيون من
العاصمة، طالباً إجراء حديث معى صباح الغد. كنت قد وافقت من حيث المبدأ، لكن الموعد لم يكن قد تحدد بعد. ذهبت إلى شركة الطيران وحين وجدت مكاناً على طائرة الصباح، حجزته وأصبحت ساعاتى الباقية فى قسنطينة قليلة.
اتصلت بهاديا، اطمئننت على خالها ثم أخبرتها بما حدث. بدت آسفة أو حتى غير مصدقة، قالت سأحاول أن أراك صباحا، وغمغمت كلاماً لم أفهمه، ثم طلبت العنوان.. كانت مضطربة، فودعتها وأغلقت الخط كنت قد عدت من جولة بالمدينة مع أصدقاء. هل كانت هذه هى الجولة التى وعدتنى بها هاديا، أن أنها كانت جولة أخرى. مررنا بالجور السبعة التى تكاثرت وصارات عشرات، بحيث بدت المدينة كلها قائمة على الجسور. عبرنا الأحياء الشعبية والقديمة (حيث مقهى النجمة المجاورة للأكاديمية العلمية التى كانت مقراً لجمعية العلماء) وحى اليهود سابقاً، وشارع فرنسا، حى المتاجر والحرف التقليدية.

www.alkottob.com

من فوق جسر سيدى راشد، أطول الجسور، شاهدت فندقى وحين عدت إلى الفندق، أدركت أننى كنت أطل عليه دون أن أعرف أنه هو بفجواته الفاغرة فاها مغرية بالانتحار. فى نشرة الأخبار، كان واضحاً أن أحداث العنف فى بجاية يتصاعد والجزائريون اللذين كانوا معى قلقون ولا يرون أنها ستمر على خير.

أعددت حقيبتى. وجلست أرتب أفكارى حول المقابلة التلفزيونية. فى الحادية عشرة مساءً اتصل صديقى يقول أن المسئول التلفزيونى يعتذر أنه لم يستطع أن يجد لى مكانا لى فى الفندق.

وأنه سيحاول أن يجرى المقابلة فى اليوم التالى الذى يليه. اغتظت غيظاً شديداً، وأخذت أفكر فيما يمكن أن يكون وراء ذلك. فالأمر مريب. اتصلت بصديقى مرة أخرى محاولاً أن أفهم شيئاً فلم استطع. فاتفقنا على اللقاء صباحاً حتى نذهب إلى شركة الطيران لتغيير الموعد مرة أخرى.

قضية ليلة سيئة، جائنى كابوس أيقظنى فى منتصف الليل، لكنى حينما استيقظت فى الصباح، لم استطع أن اتذكر تفاصيله. مطاردة ما. صف من الجعرانات تطاردنى إحداها

www.alkottob.com

أو أريدها، وشخص ما يمنعنى عنها. كان نومى بعد ذلك قلقاً فاستيقظت متأخراً. طلبت الإفطار بسرعة وتناولته وأنجزت طقوسى على عجل ونزلت لألقى الصديق، فوجدته جالساً مع هاديا، وكان ذلك أمراً مفاجئاً لأنى لم اتوقع أبداً مجيئها فى هذا الموعد المبكر. كانت ندية.. أجمل مما كانت بالأمس وأول أمس. سألتها عن حال خالها قالت لا جديد. غيبوبة: حصى فى المرارة.

ذهبنا ثلاثتنا إلى شركة الطيران وأنجزنا المهمة بسهولة وسرعة، فأخذنا الصديق لنتقهوى فى مكان جديد، اتضح أنه مقر إقامتها. ذهبت لتخبر أمها أنها ستغيب، والتقطناها من أمام باب عمارتهم. بدا لى أنها فعلت ذلك حتى لا تضطر إلى دخول المقهى المحرم على النساء.

تركنا الصديق، بعد أن قال ملمحاً، ومحاولاً الاعتذار، كل تأخيرة وفيها خيرة، تركنا فى ساحة أول نوفمبر ، مازال الناس يسمونها لابيراش.

دخلنا فى الطريق الجديد، ثم انحرفنا يساراً إلى شارع فرنسا . محلات تجارية، درنا فى الشوارع المتقاطعة، ونحن نتلامس عن بعد، يضطرنا الزحام إلى ذلك.

www.alkottob.com

فجأة قالت: الأربعين شريف واتجهت إلى اليسار. حارة سد شديدة القدم ، مبانى قصيرة ، منحنيات يمنى ويسرة حتى وصلنا إلى كومة من التراب والأحجار نبتت فوقها نباتات عشوائية. قالت: هذا بيت أبى تهدم منذ مدة ويريد إعادةبنائه. ثم دلفت إلى باب موارب قائلة انتظر. بعد قليل عادت ونادتنى لأدخل وجدت باحة متوسطة الإتساع حولها غرف متراصة بجوار بعضها ترتفع ثلاثة أدوار.

على اليسار أمرأة تنظف بساطاً وعلى اليمين أخرى تغسل ملابس فى طستين فخذيها اللذين أنحسر عنهما الثوب. بدت اليسرى متجهمة قليلاً، لكن اليمنى دعتنا للدخول إلى غرفتها مرحبة. دخلنا. كانت قاعة خاوية إلا من عدة مراتب اسفنجية تصلح أيضاً للجلوس. وقفت أتأمل، وأتسمع إلى حديثها معها. كانوا يتحدثون عن أقاربها الذين عاشوا هنا قبل فترة من الزمن. عدنا إلى الباحة وأشارت إحداهما إلى أعلى. هذه أيضاً غرف.

سألت : للإيجار؟ فضحكت وكأنها فهمت المغزى.

www.alkottob.com

خرجنا إلى الشارع الضيق وعدنا للوقوف أمام منـزلهم المتهدم. كان وجهها يزداد ندى متأثرة باللحظة. أمسكت يديها، وبالأخرى ضممتها إلى صدرى.

اتجهت إلى الناحية اليسرى من الشارع. وفعلت نفس الشئ. دلفت من باب موارب ثم عادت لتقول: ليس موجوداً! سألت: من؟

قالت: أحد الأعمام. فى مواجهة الباب كان مدخل لبيت آخر، شبهمظلم. سحبتها من يدها ودخلت ضممتها إلى صدرى وقبلتها. كانت القبلة الأولى جافة. لكن الثانية كانت أكثر ليونة. كان صدرها جافاً فلم أفهم ما إذا كان بسبب تخشبها أم أنه أصلاً صغير. كانت تلبس بالطو أسود طويل لا يكشف إلا عن بنطال فى الأسفل وعن إيشارب فوق يغطى أسفل الرقبة، فلم أستطع تخمين ما يخفيه. نسيت أنها كانت أول أمس تلبس بلوزة نصف كم تكشف عن صدر متوسط يناسب نحافتها.

ونحن نخرج إلى الشارع الواسع، قلت خسارة ليت معى كاميرا! قالت: كنت أنوى إحضار كاميرتى لكنك قلت أنك ستسافر. كانت صديقة قاهرية قد أوصتنى -وهى تودعنى –

www.alkottob.com

ألا أنسى الكاميرا: نريد أن نرى مدينة الجسور هذه. ولكنى وجدت الكاميرا بدو ن فيلم، فأنتويت شراء واحدة من النوع الذى يستعمل مرة واحدة، وحين وصلت قسنطينة سألت عنها فقالوا صعب أن تجد فى مدينة صغيرة كهذه. قلت لها ألا يمكن أن نجد كاميرا (Jetable)، قالت بلى.

وفوراً وجدنا محل تصوير ووجدنا لديه واحدة. اشتريتها وعدت إلى منزل أهلها المتهدم وصورت الحارة والبيوت.

عبرنا جسر باب القنطرة واتجهنا يساراً حتى نصل إلى جسر سيدى المعلق، والتقطت صوراً، ثم زرنا مدرسة الكتانية التى تعلم فيها هوارى بومدين، مدرسة قديمة ومهجورة. بدأت أشعر بالتعب. طلبت منها أن نجد مكاناً أن ندخله.قالت سنجد. ولجنا إلى القصبة وصولاً إلى أول نوفمبر مرة أخرى، كنا قد سرنا نحو الساعتين وبدأت أتعب بالفعل وأحتاج إلى قهوة. هى لا تشرب القهوة وكانت شابة وكنت كهلاً. كررت الطلب. قالت فى الفندق إذن، فاتجهنا إلى الفندق، سألتها إن كان يمكننا الصعود إلى الغرفة، أجابت على السؤال بوضوح: نحن فى الجزائر، ولا يفرق كون الفندق أربع نجوم أو خمسة. قلت فنحاول.

www.alkottob.com

دار الحديث متدفقاً يحاول أن يغطى على الرغبة التى أخذت تزداد اشتعالاً لدى كل منا. حكت عن أسطورتها: أبى من أصل عربى رحال من الصحراء وأمى بربرية من سطبن. لكنها هنا منذ زمن بعيد.

- تحملين إذن آثار الامتزاج.

- نعم. ومازلت أبحث عن النتائج.

ابتلعت ريقها فقمت إلى الاستقبال لأسأل إن كان الزيارة مسموح بها فى الغرف. فأجاب إجابة غامضة لم أفهم منها بوضوح. عدت فأخبرتها فقالت مستحيل.

عدنا إلى الحديث. فكت أزرار البالطو فبانت من تحته بلوزة خفيفة، تكشف أعلى صدرها والثدى الأيمن يبدو لدنا. قلت ما رأيك فى الغذاء، أبدت ممانعة، لكنها قبلت. نزلنا إلى المطعم وطلبنا أطباقاً خفيفة، وطلبت زجاجة بيرة، أبدت استياءها. سألتها لماذا. قالت: تبعدنا عن الإسلام. أردت ممازحتها، لكننى أحجمت لم تكن لدى شهية، بفعل الشهوة، وقد أخذ أسفل بطنى يؤلمنى.

وهى أيضاً لم تأكل من سلطتها كثيراً. قالت عليها خل كثير. صعدنا من المطعم وأخذنا نتجادل فى كيفية حل

www.alkottob.com

المشكلة. كان موظف الاستقبال ينظر إلينا من مكانه. انتهزت فرصة اختفائه وسحبتها من يدها صاعداً السلم فتبعتنى لكن قبل أن نختفى عن منظور الموظف، كان قد عاد ونادى عليها! إلى أين يا أنسة؟

وقفت تلهث وقد بدا أن شهوتها قد غلبتها. لكن لم يكن ممكناً فعل شئ.

أخذنا نثرثر. كان تعبى قد بلغ قمته، ولم تكن تريد أن تتحرك.. فى النهاي، كان لابد أن تنسحب. قالت: ربما نستطيع فى القاهرة.

سارعت إلى غرفتى، وخلعت ملابسى واستلقيت على السرير عاريا، حاولت إزالة غلمتى، لم أنجح تماماً. لكنى هدأت قليلاً، وقادنى الإرهاق إلى غفوة استيقظت منها على تليفون لزميل جاء ليودعنى. نزلت إليه. شربت قهوة، وجلسنا نتحدث حديثاً قلقاً.

فودعنى. وخرجت لأودع المدينة، تجولت فى الشارع الرئيسى، حتى نهايته، ثم عدت من أسفل، كانت بداية موعد العشاء فى الفندق قد حلت، وكنت جائعاً. فدلفت مباشرة إلى المطعم.

www.alkottob.com

كان خالياً إلا من أوربى، جلس يطالع صحيفة فى انتظار ما طلب، والسيدتان اللتين رأيتهما أول أمس تتحدثان بنفس الطريقة.

ولأننى كنت جائعاً ولأن هذا هو اليوم الأخير، فقد قررت أن احتفل به بالكسكوسى. طلبته فسألنى النادل. عادى أم روايال (ملوكى)؟

قلت عادى. ولكنى عدت فسألته ماذا تعنى بملوكى، قال معه سجق (Mergez). ولأنى كنت قد اشتهيت السجق أثناء جولاتى بالمدينة، فقد غيرت رأيي بسرعة وطلبت كوسكوسى روايال.

ولأنى كنت جائعاً فعلاً، حسب حدود الجوع بالنسبة لى، فقد تناولت قطعة من الخبز، وأخذت أقطع منها وأتشمم رائحتها وأتذوقها بروية فى فمى. كانت طازجة. عكس الخبز الذى قدم لنا فى عشاء الصديق أمس. حرص الصديق على أن يدعونى إلى عشاء خاص، اعترافاً بالجميل، قال أن زوجته تود أن تقدم لى وجبة خاصة، قررت تحقيق رغبته واستجبت. جاءنى صديق آخر لنقوم بجولة فى المدينة كانت فعلاً جميلة، ثم ذهبنا إلى العشاء فى منزله. نفس المنزل الذى

www.alkottob.com

كان من عشرين عاماً، لم يتغير. أقدر لصديقى عدم تطلعه، ولست أدرى إن كان غير طموح أيضاً أم لا.

قدمت بناته لنا أطباقاً متوالية غير متجانسة، ثقيلة على المعدة إلى حد ما. أكلت قليلاً من كل طبق، لكى أتعرف ولكى لا أسبب له إحراجاً. لكن معدتى أغلقت أبوابها عند منتصف الطعام. أتو بالكسكسى بعد الحلو. وكنت أرغب بالكسكسى لكنى لم أستطع تناوله بعد الحلو.

ربما لهذا -أيضاً- طلبت الكسكسى اليوم.

كان الطبق لذيذاً، كانت قطعة اللحم صغيرة، لكن السجق عوضها. لم أبق كثيراً مع الطعام، شبعت بنصف الطبق، فوقعت على الفاتورة وصعدت.

تابعت التلفزيون قليلاً، كان مملاً، وكنت مرهقاً، فأويت إلى النوم. وكانت صورتها معى، عيناها اللعوبتان، شفتاها اللتنان كانتا قد امتلأتامع منتصف الرحلة، ولون وجهها الذى صار ورديا، والشبق الذى بدا على عضلات وجهها حينما اعتصرت ركبتها التى كانت قريبة منى فى المطعم.

صعدنا السلم مسرعين. وصلنا الغرفة مضطربى الأنفاس من مجهود الصعود، ومن قلق المغامرة. ومع ذلك

www.alkottob.com

فبمجرد أن هدأت أنفاسها، وحتى بدأت تتخفف من البالطو، وتحته ظهرت البلوزة خفيفة جداً وبدون أكمام. أما البالطو فقد كان ثقيلاً لكنه محبوك جيداً فى منطقة الوسط والفخذين مما أظهرهما مرتفعين بوضوح فى حين لم يكن الثديان بارزين عكس هضاب قسنطينة. لكنى حينما أخذت أداعب حلمتيها بكلتا يدى أخذتا فى الانتصاب على نحو غريب، وبدى لى أن الثديين ينتفضان ليخرج منهما ماردان لم أكن أتجيل وجودهما، رفعت البلوزة وخلعتها فبدا لون البشرة الوردى وكأنه نبيذ وردى معتق، فأخذت أرتشف منه دون أو أرتوى، ولكنها اهتاجت هياجاً عنيفاً وأخذت تغنج، شعرت بالقلق من خروج الصوت عبر الباب، فسددت فمها بشفتى، ومددت يدى لأخلع عنها البنطلون، وكنت قد خلعت ملابسى كلها دون أن انتبه. حينئذ أصبحت عارية إلا من الكيلوت، فبادرت بخلعه ورفعت ساقيها إلى أعلى وضمت بهما ظهرى. كنت فى شدة الاهتياج بحيث أننى قذفت بمجرد أن ولجتها.

كان هياجها يزداد وأذت ترغى بكلمات لم أفهمها، لا هى بالعربية ولا بالفرنسية، فى الغالب أمازيغية. لم أجد بداً

www.alkottob.com

لإخماد جذوتها من إيلاج أصبعى، ولكنه بدا غير قادر علـى الوصول إلى عمق فرجها. أدركت على نحو مـا-أزمتـى- فهدأت قليلاً، وأخذت فىمداعبة عضوى بيدها، ثم بفمها حتى استيقظ من جديد، وعاد يلعب بتؤدة بين فخـذيها، ويلامـس شفرتيها، وكانت تتأوه بتلذذ صامت، لم يدم حـين ولجتهـا فجأة. صرخت فكتمت فمها بيدى وأخذت أصعد وأهبط، وهى تتلوى وتئن طال عضوى كما لم أعهده من قبل، وشعرت به يلامس القاع الذى بدا عميقاً جداً، ربما أعمق من هوة الوادى السحيق الذى راودتنى صورته المخيفة أسفل جسـر سـيدى مسيد فى الصباح. أرتجفت قليلاً وبدأت فى الانكماش، ويبدو أنها شعرت بذلك، فانقلبت على بطنها وركعت على ركبتيهـا وكوعها مولية أياي ردفيها فصارت الهوة بموازاتى ولـيس تحتى هوتين بين هضبتين أستطيع الطعن فى أيهمـا شـئت مستقيماً دون خشية السقوط.

www.alkottob.com